نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الثاني والعشرون

عناصر المحاضرة:

1. غزوة بني المصطلق وهي غزوة المُرَيْسِيع.
2. دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق.
3. دور المنافقين في غزوة بني المصطلق.
4. عمرة الحديبية.

غزوة بني المصطلق وهي غزوة المُرَيْسِيع:

بنو المصطلق فرع من قبيلة خزاعة، وكانت عامة بطون خزاعة ممالئين لرسول الله - ﷺ - ناصحين له، ولكن كان هذا الفرع منها ممالئاً لقريش، وقد نقل إلى رسول الله - ﷺ - أنهم يستعدون لقتاله، فبعث بُريدة بن الحُصيب لتحقيق هذا الخبر، فتأكد لديه صحته، فاستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: غيره، وأسرع في الخروج إليهم، ليباغتهم بالهجوم، ومعه سبعمائة من الصحابة، وكان بنو المصطلق نازلين على ماء يسمى بالمريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فأغار عليهم وهم غارون، فقتل بعضهم، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، وذلك لليلتين من شعبان سنة ٦ هـ، وقيل: ٥ هـ، وكان في السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، فلما قدم - ﷺ - المدينة أعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله - ﷺ - فكانت أعظم النساء بركة على قومها.

دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق:

قدمنا مراراً أن عبد الله بن أبي كان يَحْنَقُ على الإسلام والمسلمين، ولاسيما على رسول الله - ﷺ - حَنَقًا شديداً؛ لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته، وكانوا ينظمون له الخَرَزَ ليتوجوه، إذ دخل فيهم الإسلام، فصرفهم عن ابن أبي، فكان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي استلبه ملكه.

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام، وبعد أن تظاهر به.

ركب رسول الله - ﷺ - مرة على حمار ليعود سعد بن عبادة رضي الله عنه، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبي فخَمَّرَ ابن أبي أنفه، وقال: لا تُغَبِّرُوا علينا. ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن، قال: اجلس في بيتك، ولا تؤذنا في مجالسنا.

وكانت له اتصالات ببني النضير يؤامر معهم ضد المسلمين حتى قال لهم: {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ} [الحشر: 11].

📝وكذلك فعل هو وأصحابه في غزوة الأحزاب من إثارة القلق والاضطراب وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قصه الله تعالى في سورة الأحزاب: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}

📝إن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيداً أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادي وكثرة السلاح والجيوش والعدد، وإنما السبب هي القيم والأخلاق والمثل التي يتمتع بها المجتمع الإسلامي وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ الذي هو المثل الأعلى ـ إلى حد الإعجاز ـ لهذه القيم، كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن عن طريق استخدام السلاح، فقرروا أن يشنوا حرباً دعائية واسعة ضد الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول ﷺ أول هدف لهذه الدعاية الكاذبة الخاطئة.

📝وقد ظهرت خطتهم هذه جلية حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة، فقد كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلبي، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذي تبناه، فلما تزوج النبي ﷺ بزينب وجد المنافقون ثُلْمَتَيْن ـ حسب زعمهم ـ لإثارة المشاغب ضد النبي ﷺ.

❶الأولى: أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة، فكيف صح له هذا الزواج؟

❷الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه ـ مُتَبَنَّاه ـ فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب.
✉وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل، واختلقوا قصصاً وأساطير، قالوا: إن محمداً رآها بغتة، فتأثر بحسنها وشغفته حباً، وعلقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشراً بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان، وقد أثرت تلك الدعاية أثراً قوياً في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما في الصدور، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الأحزاب: 1].

✉زواج السيدة زينب ـرضي الله عنهاـ من زيد بن حارثة: انطلق رسول الله ﷺ ليخطب لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش ـرضي الله عنهاـ فخطبها، فقالت: لستُ بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: "بَلْ فَانْكِحِيهِ"، قالت: يا رسول الله، أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحدَّثان، أنزل الله تعالى قوله على رسوله ﷺ: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا} [الأحزاب: 36]، فقالت رضي الله عنها: رضيتَه لي يا رسول الله منكحًا؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، قالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي.

✉وبهذه الواقعة أراد النبي ﷺ أن يُحطِّم الفوارق الطبقيَّة الموروثة في الجماعة المسلمة، فيردَّ الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلاَّ بالتقوى، وكان الموالي ـوهم الرقيقـ طبقة أدنى من طبقة السادة، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطِّمها إلاَّ فعل واقعيّ من رسول الله ﷺ تتَّخذ منه الجماعة المسلمة أسوةً، وتسير البشريَّة كلها على هداه في هذا الطريق.

✉طلاق السيدة زينب من زيد وإسقاط التبني:

ولكن الحياة لم تَسِرْ على وجهها المطلوب بين زيد بن حارثة رضي الله عنه وبين السيدة زينب بنت جحش ـرضي الله عنهاـ فجاء زيد للنبي ﷺ يريد أن يُطلِّق زينب، لكن النبي ﷺ ردَّه، وقال له: "اتَّقِ

اللهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ"، فأنزل الله تعالى قوله: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب: 37].

فالله تعالى قد أخبر نبيَّه ﷺ أن زينب بنت جحش ستكون زوجةً من زوجاته، لكن النبي ﷺ خاف المنافقين وأقوالهم؛ لأن زيدًا ابنٌ للنبي ﷺ بالتبنِّي.

زَواج النبيّ -ﷺ- مِن زينب:

قال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: 37]؛ أي: لما قضَى زيدُ بن حارثة حاجتَه مِن زينبَ بنت جَحْش وفارَقها، وبانتْ منه زوجناكها، وكان الذي وَلِيَ تزويجها منه هو الله بمعنى أنَّه أوْحَى إليه أن يدخُل عليها بلا وليٍّ ولا عقْد ولا مهْر ولا شهود مِن البشر؛ كما روى مسلم، وعن أنس بن مالك أنَّه قال: "إنَّ زينبَ بنتَ جحشٍ كانت تَفخَر على أزواجِ النبيِّ -ﷺ- فتقول: زوَّجكن أهاليكُنَّ، وزوَّجني اللهُ تعالى مِن فوقِ سبعِ سماوات" رواه بخاري

الحكمة من زواج السيدة زينب من النبي -ﷺ-:

الله تعالى أخرج ما كان في صدر النبي ﷺ؛ ليكون زواجه من السيدة زينب بنت جحش -رضي الله عنها- ذات حكمة تشريعية عظيمة، وهي إسقاط التبني، وأول من يُطبِّق هذه الحكمة هو النبي ﷺ على مَنْ تبنَّاه؛ إذ كان زيد منسوبًا للنبي ﷺ، فكان يُقال له: زيد بن محمد، ثم أُسقط التبني فنُسب لاسمه الحقيقي زيد بن حارثة رضي الله عنه.

نفْي أُبوة محمَّد -ﷺ- لأحد:

بعدَ زواجِ رسولِ الله -ﷺ- مِن زينبَ بنتِ جحش، قال الذين في قلوبهم مرَض المنافقون: لقدْ تزوَّج محمَّد مِن حليلةِ ابنه، فأنزل الله قوله - تعالى -: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40]؛ أي: لم يكُن محمَّدٌ -ﷺ- أبًا لزيدٍ على الحقيقة، ولم يكن محمدٌ أبًا لأحدٍ مِن الصحابة، ولم تكن زينبُ زوجةَ ابنِه، وهذا كان رد على المنافقين الذين أشاعوا الأباطيل بين المسلمين.

وهذه إشارات عابرة، وصور مصغرة لما اقترفه المنافقون قبل غزوة بني المصطلق، وكان النبي ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم، أو يتحملونه بالصبر؛ إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى حسب قوله تعالى: {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة :126].

دور المنافقين في غزوة بني المصطلق:

ولما كانت غزوة بني المصطلق وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [التوبة: 47] فقد وجدوا متنفسين للتنفس بالشر، فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ، ووقعت خلالها حادثتان مؤلمتان استغلهما المنافقون لإثارة الفتن والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وحتى في البيت النبوي

الأولى: قول رأس المنافقين: لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ:

وسبب ذلك أن رجلاً من حلفاء المهاجرين وآخر من حلفاء الأنصار ازدحما على ماء المريسيع، فضرب المهاجري الأنصاري، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، واجتمع ناس من الطرفين، فبادرهم رسول الله - ﷺ - وقال: " أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة" فعاد الناس إلى رشدهم ورجعوا.

وكانت جماعة من المنافقين قد خرجت في هذه الغزوة، ولم تخرج من قبل، ومعهم رئيسهم عبد الله بن أبي، فلما بلغه الخبر استشاط غضباً، وقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عُدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، أراد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله - ﷺ - العياذ بالله - وأخذ يدبر لذلك الفتن، حتى قال لرفقائه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم لتحولوا إلى غير داركم.

وكان معهم حينما قال ما قال غلام مؤمن قوي الإيمان: زيد بن أرقم لم يصبر على هذا الهراء حتى أبلغ الخبر رسول الله - ﷺ -، فدعا - ﷺ - ابن أبي، وسأله عن ذلك، فحلف أنه لم يقل شيئاً مما بلغه، فقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، فصدقه، قال زيد: فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في بيتي، فأنزل الله: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ} إلى قوله: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا} إلى {لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: 1 - 8]، فأرسل إلى رسول الله - ﷺ - فقرأها علي، ثم قال: (إن الله قد صدقك)، فأنزل الله سورة المنافقين، وفضحه إلى يوم الدين.

وكان ابن هذا المنافق - واسمه أيضاً عبد الله - مؤمناً خالصاً، فوقف على نقب المدينة مستلاً سيفه، وقال لأبيه رأس المنافقين: والله لا يجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله - ﷺ -، فإنه العزيز وأنت الذليل، وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فأرسل إليه أن يأذن له، فخلى سبيله وبهذه الحكمة انتهت هذه الفتنة.

٢ - الحادثة الثانية: قول المنافقين بالإفك:

وحدث ذلك أن النبي - ﷺ - نزل في عودته من تلك الغزوة منزلاً حين دنا من المدينة، ثم آذن بالرحيل ليلاً، وكانت معه عائشة - رضى الله عنها -، فخرجت لحاجتها، فلما رجعت التمست صدرها فرأت أنها فقدت عقدها، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه حتى وجدته، وارتحل الجيش، وحملوا هودجها على بعيرها ظناً منهم أنها فيه، ولم ينكروا خفة الهودج لكونهم جماعة، ولكونها خفيفة، ورجعت عائشة إلى منازلهم فلم تجد أحداً، فقعدت هناك على أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها إلى هذا المكان، فغلبت عيناها حتى نامت، وكان أحد الصحابة - وهو صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمي - رضي الله عنه - قد بات من وراء الجيش، وكان كثير النوم فلم يستيقظ إلا مؤخراً، فسلك سبيل الجيش، فلما رأى سواد إنسان نائم، فلما قرب منه عرف أنها عائشة، لأنه كان رآها قبل الحجاب، فقال: أنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله - ﷺ -؟ لم يقل كلمة غير ذلك، واستيقظت عائشة - رضى الله عنها - بسماع صوته، فخمرت وجهها بجلبابها، وقرب صفوان راحلته، وأناخها فركبت، وأمسك هو زمام الناقة يمشي أمامها، حتى وصل إلى الجيش، وهم نازلون في نحر الظهيرة.

ولما رأى ذلك عدو الله ابن أبي وجد متنفساً من كرب النفاق والحقد، فاتهمها بالفجور إفكاً وزوراً، واخذ يستحكي ذلك، ويستوشيه، ويجمعه ويفرقه، ويشيعه ويذيعه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاضوا فيه، حتى انخدع عدد من المؤمنين.

ومرضت عائشة - رضى الله عنها - حين قدمت المدينة، وطال مرضها نحو شهر، فكانت المدينة تموج بقول أهل الإفك، وهي لا تعلم شيئاً، وإنما كان يريبها أنها لم تكن ترى اللطف الذي كانت تراه من رسول الله - ﷺ - حين تشكتي، فكان - ﷺ - يدخل عليها فيسلم ويقول: كيف تيكم؟ ثم يرجع ولا يجلس عندها.

وكان - ﷺ - طوال هذه الفترة ساكتاً لا يتكلم، فلما استلبث الوحي طويلاً استشار أصحابه، فأشار علي بن أبي طالب بفراقها تلويحاً، وأشار أسامه وغيره بإمساكها، وأنها كالتبر الخالص، فقام - ﷺ - على المنبر واستعذر من رجل بلغ أذاه في أهله - وكانت الإشارة إلى عبد الله ابن أبي - فأظهر سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت الحمية سيد الخزرج، لأن ابن أبي كان منهم، فتثاور الحيان حتى خفضهم رسول الله - ﷺ -.

وخرجت عائشة رضى الله عنها ذلك اليوم لحاجتها ليلاً، وقد نقهت من المرض، ومعها أم مسطح، فعثرت في مرطها، فدعت على ابنها مسطح، فاستنكرت ذلك عائشة، فأخبرتها الخبر، وأن ابنها ممن يقول بقولهم، فرجعت عائشة فاستأذنت رسول الله - ﷺ - وأتت أبويها، فلما تأكد لديها الخبر جعلت تبكي وتبكي حتى بكت ليلتين ويوماً، لم تكتحل أثناءها بنوم، ولم يرقأ لها دمع، حتى ظنت وظن أبواها أن البكاء فالق كبدها.

وجاءها رسول الله - ﷺ - صباح الليلة الثانية فجلس وتشهد وقال: أما بعد يا عائشة! فإنه بلغني عنك كذا كذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

وحينئذ قلص دمعها، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان، فقالت: والله لقد علمت لقد سمعت بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم أني برئية - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقوني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: 18]

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فسري عن رسول الله - ﷺ -، وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: "يا عائشة! أما الله فقد برأك"، فقالت لها أمها: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله.

والذي أنزله الله - تعالى - في براءتها عشر آيات في سورة النور بداية من قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ... إلى آخر الآية العشرين: ثم خرج رسول الله - ﷺ - إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله من براءتها، فلما نزل أمر برجلين وأمرأة من المؤمنين الخالصين فجلدوا، كل واحد ثمانين جلدة، وهم: مِسْطَح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحَمْنَة بنت جحش، زلت أقدامهم فأفاضوا في الإفك، وأما رأس المنافقين الذي تولى كبره، ورفقته، فلم يعاقبوا في هذه الحياة الدنيا، ولكنهم سيقفون بين يدي الله يوم الدين، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

ومما ذكر أهل التفسير من الخيرية في حادثة الإفك:

1- إظهار كرامة واعتناء الله بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم.

2- الأجر العظيم المترتب على صبرها على هذا الابتلاء الكبير، ورفع منزلتها رضي الله عنها في الآخرة.

3- تسلية الرسول - ﷺ - والربط على قلبه، وتسلية الصديقة رضي الله عنها ووالديها وأسرتها رضي الله عنهم.

4- الحادثة كشفت المنافقين الذين يمكرون ويكيدون للإسلام والمسلمين.

5- بيان المنهج القويم في كيفية التعامل مع مثل هذه الأحدث العظيمة من حفظ اللسان وحسن الظن.

عمرة الحديبية:

⇦الخروج للعمرة والنزول بالحديبية

أري رسول الله - ﷺ - في المنام، وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام (آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ)، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر، واستنفر الأعراب الذين حوله، فأبطأوا، وظنوا أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، وتخلصوا قائلين: شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا.

وخرج رسول الله - ﷺ - يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة ٦ هـ، في ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لم يخرج محارباً، بل معتمراً، فلما بلغ ذَا الْحُلَيْفَةِ، قَلَّد الهدي وأشْعَرَه وأحرم بالعمرة.

ثم سار حتى بلغ عسفان، فجاءه عينه، وأخبره أن قريشاً مجمعون على القتال، وصد المسلمين عن البيت الحرام، وكانت قريش قد نزلوا بذي طوى، وأرسلوا خالد بن الوليد في مائتي فارس إلى كراع الغميم، قريباً من عسفان، وليسد الطريق النافذ إلى مكة، وجمعوا الأحابيش ليعينوهم، فاستشار رسول الله - ﷺ - هل يهاجم على أهالي المجتمعين من الأحابيش، أو يقصد البيت، فمن صده يقاتله؟ فقال أبو بكر - رضي الله عنه جئنا معتمرين، ولا مقاتلين، فمن حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقبل النبي - ﷺ - هذا الرأي.

ورأى خالد المسلمين في الصلاة الظهر، وهم يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم، ثم قرر أن يهجم أثناء صلاة العصر، فأنزل الله صلاة الخوف بين الظهر والعصر، ففاتته الفرصة.

وأخذ رسول الله - ﷺ - طريقاً آخر غير طريقهم، فسلك ذات اليمين من أسفل مكة، حتى بلغ ثنية المرار مهبط الحديبية، فلما بلغها بركت ناقته، فزجروها فلم تقم فقالوا: خلأت القصواء، فقال: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت، فتقدم حتى نزل بالحديبية.

وجاء بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعي في نفر من خزاعة - وكانوا ناصحين لرسول الله - ﷺ - فأخبره أن قريشاً مستعدون لقتاله وصده عن البيت الحرام، فأخبره رسول الله - ﷺ - أنه ما جاء إلا للعمرة، وما جاء للقتال، وأنه مستعد للهدنة والصلح، ولكن إن أبت قريش إلا القتال فإنه يقاتلهم حتى تقطع عنقه، أو ينفذ الله أمره.

بين رسول الله - ﷺ - وقريش:

ولما رجع بديل أبلغ ذلك قريشاً، فأرسلوا مكرز بن حفص، فقال له رسول الله - ﷺ - مثل ما قال لبديل، فأرسلوا سيد الأحابيش: الحليس بن عكرمة، فلما أشرف على المسلمين قال لهم رسول الله - ﷺ -هذا من قوم يعظمون الهدي فابعثوه، ففعلوا واستقبلوه يلبون، فلما رأى الحليس ذلك قال: سبحان

الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، أتحج لخم وجذام وحمير، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب؟ هلكت قريش ورب البيت، إن القوم أتوا معتمرين، فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا: اجلس إنما أنت أعرابي، ولا علم لك بالمكايد.

ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، فجاء وكلم، فقال له رسول الله - ﷺ - مثل ما قال لبديل، فقال: أي محمد! أرأيت لو استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، أي الهزيمة بك، فإني أرى حولك أوباشاً من الناس جديرون أن يتركوك ويفروا، فقال له ابو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه! فلم يستطع أن يرد على أبي بكر، لإحسان أبي بكر إليه من قبل.

وكان عروة يأخذ لحية النبي - ﷺ - حين يكلم، فكان المغيرة بن شعبة يضرب يده بنعل السيف ويقول: أخر يدك عن لحية رسول الله - ﷺ - فقال له عروة: أي غدر! ألست أسعى في غدرتك.

وكان المغيرة ابن أخي عروة، وكان قتل قوماً وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فلم يقبل منه رسول الله - ﷺ - إلا الإسلام، وكان عروة يسعى في ذلك، فأشار بغدرته إلى هذة القضية.

ورأى عروة تعظيم الصحابة للنبي - ﷺ -، فلما رجع قال لقريش: أي قوم! لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

وخلال المفاوضات تسلل في الليل طائفة من شباب قريش الطائشين: سبعون أو ثمانون، فهبطوا من جبل التنعيم إلى معسكر المسلمين، وأرادوا بذلك القضاء على محاولات الصلح، ولكن المسلمين ألقوا عليهم القبض، ثم أطلقهم النبي - ﷺ - وعفا عنهم، فكان له أثره على إلقاء الرعب في قلوبهم قريش، وميلهم إلى الصلح، وفي ذلك أنزل الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ}.

عثمان بن عفان رسولا إلى قريش، وبيعة الرضوان:

وحينئذ قرر رسول الله - ﷺ - إرسال رسول إلى قريش يؤكد لهم أنه ما جاء إلا للعمرة، فأرسل عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، وأمره أيضاً أن يأتي المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة، فيبشرهم بقرب الفتح، وأن الله مظهر دينه، حتى لا يستخفي في مكة أحد بالإيمان.

ودخل عثمان - رضي الله عنهم - في مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي، فبلغ الرسالة وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فأبى أن يطوف ورسول الله - ﷺ - ممنوع.

وحبست قريش عثمان - رضي الله عنه - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم، ثم يرسلوه مع الجواب - وشاع بين المسلمين أنه قتل، وقتل الرسول يعني الإعلان عن الحرب، فلما سمع رسول الله - ﷺ - ذلك قال: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس وهو تحت شجرة، أن يبايعوه على القتال، فثار الناس إليه، وبايعوه - بحماس - على الموت، وعلى أن لا يفروا، وأخذ رسول الله - ﷺ - إحدى يديه بالأخرى، وقال: هذه عن عثمان، ولما انتهت البيعة جاء عثمان - رضي الله عنه -. وأنزل الله في فضل هذه البيعة {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} ⇦ومن هنا سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان.

✉ومن الآيات الباهرات التي شاهدها الصحابة في يوم الحديبية: فمن ذلك شهادة الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما على ما حدث يوم الحديبية، فقال: " عطش الناس يوم الحديبية والنبي - ﷺ - بين يديه ركوة - إناء من جلد-، فتوضأ، فجهش-يعني: أسرع- الناس نحوه، فقال: (ما لكم؟) قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا، وتوضأنا " ولما سئل جابر رضي الله عنه عن عددهم في ذلك اليوم قال " لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة " متفق عليه، واللفظ للبخاري.

المراجع:

❶روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❷الرحيق المختوم المباركفوري.

❸الدروس المستفادة من صلح الحديبية: د. راغب السرجاني.

❹زينب بنت جحش رضي الله عنها: راغب السرجاني.

❺زواج النبي من زينب: د. معزز اسكندر الحديثي.

❻بل هو خير لكم: د. محمد بن عدنان السمان.